مدينة تمبكتو ونشاطها التجاري

☜ إعـــداد

دكتور / عبد الله التقاز

جامعة الزاوية - كلية الآداب

زوارة -جامعة طرابلس

كلية التربية - قصر بن غشير

مقدمة

تقع مدينة تمبكتو على ضفة نهر النيجر تحفها الصحراء. مصرت في العهد الاسلامي اواخر القرن الخامس الهجري وقام بإنشائها (توارق مغشرن)[1] مما ساعد علي انتشار الاسلام في ربوع السودان الغربي. وكانت في بدأية تأسيسها بلدة صغيرة يرتادها الطوارق في حلهم وترحالهم فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم. ثم توسعت واضحت مسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم. وربط المؤرخ السعدي تسميتها بوظيفتها السكانية الأولى باعتبارها مخزن حسبما هو معروف في لغة الطوارق قائلاً: "مدعوة بتنبكت"[2] ومعناها في لغتهم العجزة وهي بها فسميت الموضع المبارك بها ومنهم من ربط تسميتها بالشخص المكلف بحراستها والمدعو تيبو توالي ثم تحولت على ألسنة السود إلى تونبوتو ولفضها العرب تونبوكتو.[3]. وجاء ذكرها في مصادر التاريخ المحلي السوداني بلفظة تنبكت وربما كان اختصاراً للفظها ولسهولة تسميتها[4]. وتقوم أطلالها اليوم على مسيرة عشرة أميال جنوباً للمدينة الحالية[5].

وقد زارها ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) فضبط اسمها وذكر نبذة عنها قائلاً "مدينة تنبكتو وضبط اسمها بضم التاء المعلوة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسكون الكاف وضم التاء المعلوة ثانية وواو وبينها وبين نهر النيجر أربعة أميال وأكثر سكانها من أهل اللثام وحاكمها يسمى " قريا موسى" حضرت عنده يوماً... وبهذه البلدة قبر الشاعر المعلق أبي موسى الساحلي الغرناطي المعروف ببلدة بلطويخيوبها قبر سراج الدين بن الكوبك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية)[6] .

ووصف الحسن بن الوزان (ت٩٥٩هـ/١٥٥٢م) تمبكتو إذ كتب عن حياتها الاجتماعية الاقتصادية قائلاً : (هناك.... دكاكين كثيرة لصناع وتجار وخاصة ممثل ناسجي الأقمشة التيلية والقطنية وإلى هناك يجلب التجار البربر أقمشة من أوربا. وجميع نساء المنطقة فيما عدا الخادمات يسرن بوجوه محجبة يبتعن الإحتياجات الضرورية لهن والسكان وخاصة الغرباء المقيمين هناك كثيرو الثراء إلى حد أن الملك الحالي زوج بنتيه الي تاجرين ثريين. وهناك كثير من الآبار تحوي أحلى المياه... والملك ينفق بسخاء على عدد كبير من الأطباء والقضاة ورجال الدين والفقهاء والأخرين يحملون إلى هناك مخطوطات مختلفة من الكتب المكتوبة في بلاد البربر وهي تباع بثمن أغلى من أي نوع آخر من

التجارة... إن نهر النيجر يسير نحو الغرب إلي المحيط وقد أبحرنا فيه مع التيار من تمبكتو إلى جني ومالي)[٧].

وقال محمود كعت التنبكتي (ت١٠٠٢هـ/١٥٩٣م) إنها في غاية الحسن والجمال وإقامة الدين وإحياء السنة بها ما شئت من دين ودنيا... وهي يومئذ موصوفة ببعض ما وصف الحريري البصري... بتنبكت يومئذ لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب من بلاد مروة ومرية وتعففاً وصيانة وحفظ العرض ورأفة ورحمة بالمساكين والغرباء وتلطفاً بطلبة العلم وإعانتهم)[٨] .

وقال مؤرخها عبدالرحمن السعدي (ت١٠٦٣هـ/١٦٥٥م) ضمن باب (ذكر تنبكت ونشأتها) "فنشأت على أيدي توارق مغشرن في أواخر القرن الخامس من الهجرة... موضع هذه البلدة الطيبة الزكية الفاخرة إلى ذات البركة ونجعة وحركة التي هي مسقط رأسي وبغية نفسي ما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها فقط لغير الرحمن مأوى العلماء والعابدين ومألف الأولياء والزاهدين وملتقى الفلك والسيار فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم إلى أن صارت مسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم وخازنهم"[٩].

واستقرت في تمبكتو بعض الجماعات العربية منهم "الكوننفة" البكاؤون الذين انتشروا في جهات متعددة منها وينتهي نسب هؤلاء إلى سلالة الفاتح العربي الكبير عقبة بن نافع بن عبدالقيس الفهرى[١٠]. وسكان تمبكتو من أصل بربري وزنجي وشعبها ذوو بشرة زنجية الدم البربري يجري في عروقهم[١١].

- **تطورها التاريخي:**

لقد أضحت تمبكتو بعد تمصيرها رهينة بالظروف السائدة في منطقة السودان الغربي والمحددة بقوة الممالك وملوكها. فقد بقيت تحت سيطرة دولة مالي ما يقارب المائة عام (٧٣٧-٨٣٧هـ / ١٣٣٦-١٤٣٣م) الذي اوكلوا أمر إدارتها إلى صنهاجة المتمثلة في شخص "محمد نض". وشهدت تمبكتو بعد عام ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م فترة من عدم الاستقرار لخضوعها لسيطرة الطوارق. ولما كان هؤلاء يحبذون السكنى في البراري فقد قرر سلطانهم آكل ببقاء تمبكتو تحت إشراف صنهاجة واستمر محمد نض الصنهاجي في أمر إدارتها. وتم الاتفاق بين نض وملك الطوارق آكل على تقسيم ابرادات تمبكتو المتحققة من التجارة وغيرها بينهما بواقع الثلث إلى المدينة والثلثين إلى ملك الطوارق. ولكن هذا الأمر تغير بعد وفاة محمد نض وآكل وتسلم عمار بن آكل زعامتهم. و الذى آثر السيطرة على جميع الايرادات واتخذ في الوقت نفسه سياسة تدعو إلى معاملة أهل تمبكتو بالعنف والشدة "وبقوا يسعون في الارض فساداً ويخرجون الناس من ديارهم قهراً".

وبناءً على ذلك اتخذ عمر بن محمد بن نض الذي خلف والده في إدارتها خطة تعتمد على مكاتبة ملك "شنغاي" وهي الدولة المجاورة لمالي يدعوه إلى دخول تمبكتو والسيطرة عليها موضحاً الحوال العامة للمدينة والظروف السائدة فيها "ولضعف الذى آل إليه أحوال آكل في كل شيء في قدره وفي جسمه"[١٢].

وبناءً على ذلك جمع" سن علي" ملك السنغاي قواته وقادها نحو تمبكتو وتمكن من السيطرة عليها بعد هروب سلطان الطوارق وحاكمها الصنهاجي. وبدأ عهد جديد في مدينة تمبكتو يتمثل بخضوعهم إلى دولة سنغاي والذي ابتدأ بالعنف والشدة والخراب[١٣].

وقدم صاحب كتاب السودان تفصيلاً لسياسة العنف التي اتخذها" سن علي" إزاء مدينة تمبكتو التي تسلط عليها حتى وفاته عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م. فقد وصفه بأنه كان "ضالماً فاسقاً معتدياً متسلطاً سفاكاً للدماء" ووصف سياسته قائلاً: "دخل في تمبكت... عمل فيها فساداً عظيماً جسيماً فحرقها وكسرها وقتل فيها خلقاً كثيراً"[١٤]. وبين كذلك معاملته لعلماء تمبكتو قائلاً: "فاستغل الظالم الفاسق

بقتل من بقي منهم في تنبكت وإهانتهم" علماً بأن آكل سلطان الطوارق أنقذ عدداً من علماء هذه المدينة من براثن هذا الملك قبل وصول الأخير للمدينة حيث "أحضر ألف جمل لحمل علماء وفقهاء جامع سنكري ومشى بهم إلى بير"[١٥]. وقد علل السعدي سياسة " سن بن علي" العدوانية وبحسب ادعاء هذا الملك و العلاقة الحميمة القائمة بين الطوارق وتمبكتو حيث "زعم انهم احباء الطوارق وخاصتهم"[١٦].

وبعد وفاة سن علي عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م ، تتابع سلاطين سنغاي في حكم تمبكتو باعتبارها جزءاً من أراضيها تحت سيادتها. والأمر المتميز في حكم هؤلاء السلاطين في العلاقات السيئة التي كانت قائمة بين سنغاي وملوك مراكش والتي كانت لها اثراً سلبية على مستقبل هذه المدينة وبدءً من عام ٩٥٣هـ/١٥٤٦م وخلال حكم السلطان اسكيا اسحق. فقد كتب إليه أحمد الكبير سلطان مراكش "ان يسلم له معدن تفاز"[١٧]. باعتباره من جملة المعادن "التي يختص بيت مال المسلمين بخراجها المستفاد وللامام فيها النضر والاجتهاد". وحدد سلطان مراكش الخراج المطلوب بأن يكون "مثقالاً على كل جمل من سائر الابل التي ترده تؤمه من سائر الجهات"[١٨]. ومعللاً الأهمية المتأتية من هذا الخراج ضمن رسالة أرسلها إلى ملك سنغاي قائلاً: "وقصدنا بما يحصل من ذلك صرفه إنشاء الله في سبيل الغزو والجهاد وفي أرزاق ما لنظرنا العلي من العساكر والأجناد التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد واعتدنا للذب من كلمة الأسلام وحياطة البلاد"[١٩]. وكانت اجابة أسكيا اسحق عليه: "أن احمد الذي سمع ليس هو أباه ما زال ما حملت به امه".

وكوسيلة لإثبات قوة دولة سنغاي أرسل حملته باتجاه درعة المراكشية " المولفة من"الفين ركاباً من الطوارق" وأمرهم بالإغارة على سوق المدينة مع عدم التعرض لأرواح الناس "فأكلوا جميع ما وجدوا في ذلك السوق من الأموال فرجعوا كما أمرهم وما قتلوا أحداً وما ذلك إلا ليرى السلطان أحمد المذكور قوته"[٢٠].

لكن سلطان مراكش بقي عازما على المطالبة بخراج تفاز والسيطرة عليها ؛ ففي عام ١٠٣٨\١٥٥٧م أرسل سلطان مراكش المقاتلة بالتعرف على موقع الملح في المنطقة من اطلي وتفاز

وتم قتل عدد من الجماعات التي كانت تعمل في استخراجه. وإزاء ذلك أذن السلطان أسكيا اسحق للناس في طلب الملح من مناطق أخرى غير تغاز واطلي فتم حفر تغاز الغزلان التي تقع جنوب تلك المدن (٢١).

وبعد وفاة أسكيا أسحق سلطان سنغاي جدد أحمد الذهبي سلطان مراكش الجديد طلبه في دفع الخراج على ملح تغاز لسنة واحدة فأجاب طلبه أسكيا داود وارسل له عشرة آلاف ذهبا وعطية خير(٢٢). فكان هذا سبباً في تحسن العلاقات بين الطرفين وإن كان ذلك لفترة قصيرة إذ سرعان ما أخذ سلطان مراكش يخطط في الكيفية التي يتم بها السيطرة على السودان الغربي. وكانت الخطة التي اعتمدها سلطان مراكش تقوم بإرسال العيون إلى مدن سنغاي للتحري عن الأوضاع العامة السائدة فيها والتعرف على القوة العسكرية لسلطانها. وكانت هذه العيون متخفية تحت ستار رسل حملت الهدايا إلى السلطان الحاج محمد. وبعد عودة هذه الرسل أعد سلطان مراكش جيشاً مؤلفاً من عشرين ألف مقاتل باتجاه ودان الواقعة جنوب شرق موريتانيا(٢٣). وأمرهم بأخذ ما هناك من البلدان على شاطئ البحر وغيرها.وكان هدف الحملة المركزي يكمن في الوصول إلى تمبكتو والسيطرة عليها. فلما وصلت الأخبار لها هرب أهلها خوفاً. لكن هذا الجيش لم يكتب له النجاح في الوصول إليها إذ سرعان ما انهار وتشتت بفعل الجوع والعطش. لكن هذه الخسارة لم تمنع سلطان مراكش من إعادة الكرة بإرسال جيش إلى مدينة تغاز "وأمره بأخذ أهله". فهرب أهلها شأنهم شان تمبكتو خوفاً من بطش الجيش المغربي.ولما وصل هذا الجيش وجد الموقع خالياً أيضاً (٢٤).

استمرت العلاقات المتوترة بين سنغاي ومراكش ووصلت حدتها خلال حكم اسكيا اسحق الثاني (٩٩٧-١٠٠٠هـ / ١٥٨٨-١٥٩١م) حيث عزم السلطان المنصور ملك المغرب على السيطرة على سنغاي ومواردها من الذهب. ففي سنة ٩٩٨هـ/١٥٨٩م طلب سلطان مراكش خراج تغاز ورفض سلطان سنغاي ذلك فأعد السلطان المنصور العدة في السيطرة على سنغاي واستشار في ذلك الوزراء والعلماء والحكام وزعماء القبائل. لكن هذه الجماعات لم تؤيد السلطان المنصور بسبب ظروف الصحراء القاسية وصعوبة التموين ورغم هذه المعارضة أصر السلطان المنصور على إرسال حملة مؤلفة

من أربعة آلاف مقاتل إضافة إلى الأتباع من الصناع والأطباء. وقد وصفت هذه الحملة بأنها من أضخم الحملات التي عرفتها الصحراء وكانت بقيادة جودو. واستطاعت هذه الحملة من تحقيق أهدافها والوصول إلى تمبكتو. وبدأ عهد جديد في هذه المدينة يتمثل في خضوعها للسيطرة المغربية. وقامت مراكش بتجريد حملات أخرى نحو هذه المدينة لتوطيد سيطرتها على تمبكتو منها الحملة التي كانت بقيادة محمود بن زرقون التي خرجت من مراكش عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م [٢٥].

وكانت السيطرة المغربية على تمبكتو تمثل فترة صعبة جداً على المدينة لما رافقها من أمور سلبية هددت مستقبل تمبكتو ومكانتها العلمية والتجارية. وقد وصفت مصادر التاريخ المحلي للسودان الأحوال التي سادت هذه المدينه والمعاملة السيئة التي اتخذها قادة وحكام مراكش . ويوضح صاحب كتاب" الفتاش" عما أصاب تمبكتو من الحمله المغربية التي دخلت المدينه عام ٩٩٩هـ/١٥٩١م قائلاً: "شرعوا في تلفيف الديار والطرق وهدم بعض الديار ولافتنة أعظم ولا أكبر على أهل تنبكت ولا أمر منه نادى الباشا جودو علماء تنبكت وتجارها ووظف عليهم العبيد والخدم لبنائها "بناء معسكر خاص لجيشه" [٢٦]. وواصل محمود كعت وصف ما لحق بتمبكتو من هذه الحملة قائلاً: "وأخبرني شيوخ تنبكت ... أن الباشا جودو قطع على تجار تنبكت " بناء معسكراستهلك الفاًومانتين صينية عند استهلاك كل شهر يأتون بها في غده ويفرقها على جنده ... ولا يحاط باطراد ما نزلت بتنبكت من المصائب والإتلاف عند نزولهم بها ولا يحضروا مما أحدثوه فيها من الزور والكبير قلع بيبان البيوت وقطع أشجارها ليستعملوها سفينة ". إضافة إلى ما قاموا به من مصادرة بعض المنازل وخاصة تلك التي كانت "أعمر ديار تنبكت" وأمر بأخذها وتحويلها إلى معسكرات لإقامة الحمله وقادتها"[٢٧].

وبعد جودو جاء محمود بن زرقون الذي سار على سياسة سلفه إضافة إلى اتخاذ سياسه خاصة ارتأى منها احكام السيطرة التامة على تمبكتو ؛ فقد قام أولاً بمطاردة المعارضة حيث أمر بإلقاء القبض على عدد من علمائها وأعيانها وكل من يعارض السيطرة المغربية ويدعو إلى تحرير تمبكتو ؛ وقد بلغ عدد هؤلاء نحو نيف وسبعين شخصاً قام بترحيلهم إلى مراكش[٢٨]. وبعد هذا قام بتعيين أسكيا جديد عليها

يكون نائباً عن سلطان المغرب . فانقسمت الفئة الحاكمة في سنغاي مابين معارض ومؤيد . ونتيجة لهذا الخلافات ساد تمبكتو الفوضي والإرتباك وتفككت عرى الروابط بين سنغاي وقبائلها . ووصفت أحوال تمبكتو إبان حكم زرقون "صارت جسماً بلا روح وانعكست أمورها وتغير حالها وتبدلت عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها وساد أراذلها على عظمائها وباعوا الدين بالدنيا "[٢٩]. وبعد هذه الحوادث المريرة نلاحظ تغير السياسة المغربية تجاه هذه المدينة بعد تعيين الحاكم المغربي "مامي" الذي كلف بتهدئة الأحوال في تمبكتو فعادت الأمور إلى نصابها وعاد العلماء والتجار إليها واستأنفت القوافل نشاطها عبر هذه المدينة . وإزاء هذا الأمر ورغبة من سكانها في المحافظة على استقرار الأوضاع في مدينتهم قرروا دفع ستين ألف مثقال إلى سلطان مراكش . وبذلك أضحت هذه المدينة مكانة خاصة "وتلقب ولي العهد المغربي مولاي زيدان بن المنصور بملك جاو وتنبكتووجن"[٣٠].

لكن هذه الأمور لم تبق على ماهي عليه من الإستقرار في تمبكتو إذ رجعت الفوضى وعمت المظالم فيها وفي المدن السودانية طيلة السنوات الأخرى من السيطرة المغربية التي استمرت حتى عام ١١٦٤هـ/١٧٥٠م. وتبدأ من هذا التاريخ فترة أخرى من تاريخ تمبكتو تمثلت في الهجمات التي شنها الطوارق عليها ونجاحهم في السيطرة عليها عام ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م وتبعهم الفولة [٣١] الذين سيطروا عليها عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م ثم وقعت على يد التكارير ثم دخلت في عداد المستعمرات الفرنسية عام ١٣١١هـ/١٨٩٣م[٣٢] بعد أن بدأت أوربا توجه أنظارها نحو تمبكتو خاصة والسودان عامة وشهدت المنطقة في القرن التاسع عشر غزو أجنبي جاء عبر سواحل المحيط الأطلسي[٣٣].

- النشاط التجاري :

هناك جملة أمور جعلت من تمبكتو قاعدة تجارية لها مكانتها في المنطقة. إذ بحكم موقعها على حافة الصحراء من جهة وعلى ضفاف نهر النيجر من جهة أخرى صارت لها سمة تجارية خاصة. وكانت ملتقى طرق القوافل الصحراوية ومركزاً للطرق المارة للقاطنين عبر هذا النهر[٣٤]. وكان موقع تمبكتو على هذا الطريق المائي قد جعلها تتحكم في جزء كبير من تجارة السودان الغربي. وهذا قد أعطاها ميزة كبيرة على الأسواق المجاورة لها والتي أخذت تجارتها ومكانتها بالانحسار تدريجياً[٣٥]. ذلك أن قرب هذه المدينة من مدن أخرى كان لها شأنها في المنطقة أثر كبير في تعزيز المكانة التجارية في تمبكتو على حساب تضاؤل تجارة تلك المدن. ويبين صاحب كتاب تاريخ السودان مدى أرتباط نشاط هذه المدينة مع نشاط مدينة جيني التي وصفها بأنها كانت "سوق عظيم من أسواق المسلمين... ومن أجل هذه المدينة تأتي الرفاق من جميع الأفاق إلى تنبكت شرقها وغربها يمينها وشمالها وهي لتنبكت في وراء البحرين بين المغرب واليمن في جزيرة البحر حتى فارض وحتى رجع"[٣٦]. وكانت تجارة "جني" تعتمد على الثروة الطبيعية الموجودة في المنطقة إذ "فيها يلتقي أرباب الملح مع معدن تفاز وأرباب الذهب مع معدن يط". وبين كذلك تأثير هذين المعدنين على النشاط الاقتصادي في السودان والتي يطلق عليهما المعدنين المباركين[٣٧] قائلاً: "ما كانت مثلهما في الدنيا كلها فوجد الناس في التجارة إليها كثيراً وجمعوا فيها من الأموال ما لا يحصيه إلا الله سبحانه"[٣٨].

وكان القاطنين علي جانبي نهر النيجر يتقابلون في تمبكتو لمبادلة الملح والبلح ومنتجات المغرب بالقمح وحبوب الكولا[٣٩] والذهب من السودان والأرز من النيجر والذهب والرقيق والعاج وحبوب الكولا من سانا نونج وجني. وكذلك كانت تستورد حبوب الكولا من ننجريلا من ساحل العاج[٤٠].

وأشار صاحب كتاب السودان إلى ارتباط نشاط تمبكتو بنشاط بلدة "البير" التي كانت سوقاً تجارية ويأتيها الناس من كل جهة ومكان "واليه يرد الرفاق من الآفاق ويسكن فيه الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلاد من أهل مصر ووجل وفزان وغدامس وتوات

ودرعة وتفلالة وفاس وسوس وبط"[٤١]. ولكن بمرور الزمن "انتقل الجميع قليلاً قليلا حتى استكملوا فيه وزيادة مع جميع قبائل الصنهاجة بأجناسها". ثم بين السعدي تأثير انتقال أرباب العلم والمال على انحسار نشاط البير قائلاً: "فكانت عمارة تنبكت خراب البير"[٤٢].

وإزاء هذا فقد أضحت تمبكتو قاعدة تجارية مهمة وبعد نحو قرنين من الزمن أضحت أيضاً مركزاً للتجارة القائمة بين مدينتي جني وولاتة واتخذت لها ميناءً خاصاً لتسوية أمور التجارة والتجار حيث تم تطوير وتحويل قرية الصيد "كبارا" المجاورة لمدينة تمبكتو وولاتة لتتحكم بعد ذلك في تجارة ولاتا التي أخذت تفقد أهميتها ومكانتها في عالم التجارة لتتحول إلى تمبكتو أيضاً شأنها في ذلك شأن جني والبير[٤٣].

وتعززت تجارة تمبكتو مع عدد من مدن المغرب الأقصى ممثل السوس وسجلماسة وفاس ومع توات وغدامس وفزان وعجيلة في الصحراء. أما عن تجارتها مع مصر فقد وصلت إلى درجة وثيقة من التعاون منذ وقت مبكر بدءاً من الزيارة التي قام بها لمصر الملك منساموس (٧٠٦-٧٣٣هـ/١٣٠٧-١٣٣٢م) والصفقات التجارية التي عقدها مع عدد من تجار مصر(٤٤). وقدم عدد منهم إلى تمبكتو لتعزيز هذا النشاط[٤٥].

وعلاوة على التجار العرب فقد شهدت أسواق تمبكتو كثيراً من التجار الأجانب الذين وصفوا بالثراء وفيها جالية كبيرة من التجار الأجانب منهم التجار الانكليز الذي كانوا يجلبون معهم الأقمشة الإنكليزية لمبادلتها بالذهب الذي كان يشحن إلى انجلترة(٤٦). وكتب أحد التجار الانكليز في سنة ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م "أن أهل سوس لهم تجارة كبيرة في البضائع البريطانية المرسلة إلى تمبكتو"[٤٧]. وكذلك كانت تتاجر مع الوكالات الأوربية الموجودة في السنغال[٤٨].وأصبح لتمبكتو علاقات ومعاملات تجارية منتظمة مع الثغور الأيطالية وبخاصة فلورنسه[٤٩]. وزودنا الرحالة الحسن بن الوزان بالمعلومات القيمة عن التجار الواردين على تمبكتو إذ قال: "ومن المدهش أن نرى أن كثرة التجار الذين يقدمون يومياً إلى هنا وارتفاع أثمان جميع البضائع"[٥٠] وتحدث كذلك عن المنتجات الرائجة في تجارة

تمبكتو فقد قال عن ملح تغاز: ".... فإنهم يبيعون الملح الذي يستخرجونه إلى تجار معينين يحملونه على جمال إلى مملكة تمبكتو حيث الملح نادر ندرة شديدة ومستخرجو الملح ليس عندهم أي طعام بل يأتي به إليهم التجار لأنهم بعيدون عن الأماكن المأهولة مسافة عشرين يوماً"(٥١).

وبالأضافة إلى الملح كان هناك تجارة الذهب الرائجة عالمياً والمرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتجارة الملح إذ أن "قوافل الملح التي تخرج من تغازة وتسافر جنوباً إلى تمبكتوإلى مالي حيث ينتقل الذهب من ظهور الجمال إلى رؤوس الرجال"(٥٢).

وأشار الحسن بن الوزان إلى أن تجارة الكتب ورواجها في تمبكتو قائلاً: "يحملون إلى هنا مخطوطات مختلفة من الكتب المكتوبة في بلاد البربر وهنا تباع بثمن أغلى من أي نوع آخر من التجارة"(٥٣).

وللمنسوجات تجارة لها مكانتها في أسواق تمبكتو التي كان يجلبها تجار غدامس منها قماش خاص كان ينسج في كانو (إحدى مدن الهوسا) وكان يلقى رواجاً كبيراً في تمبكتو لاستعماله كعملة للتداول في أسواقها(٥٤). كما كان التجار البربر يجلبون أقمشة متنوعة من أوربا(٥٥). إضافة إلى المنسوجات القطنية التي كانت تجلب من إنجلترا(٥٥). هذا مع العلم بأن تمبكتو مشهورة ومعروفة بصناعة الأنسجة. ووصف الحسن بن الوزان هذه الصناعة قائلاً: " إن بها دكاكين كثيرة لصناع وتجار وخاصة مثل ناسجي الأقمشة التيلية والقطنية"(٥٦). ووصف صاحب كتاب "الفتاش" هذه الصناعة ومحلاتها والعاملين فيها حيث ذكر أن مدينة تمبكتو تحتوي على ست وعشرين "بيتاً من بيوت الخياطين المسماة ننبدت...ولكل واحدة من تلك البيوت شيخ رئيس معلم عنده من المتعلمين نحو خمسين وعند بعضهم سبعين إلى مائة"(٥٧).

وأسس تاجر ايطالي من فلورنسه مقيم في تمبكتو معملاً لنسج السروج على غرار ما كان ينسج من لومبارديا[٥٨].

أما عن الطريق التجارية التي كانت تربط تمبكتو بالعالم الخارجي فهناك نحو أربعة طرق معروفة يربط الأول بينها وبين مصر ماراً بكانم وجاغ . ويربط الثاني بينها وبين المغرب الأقصى بدءاً من تونس . والطريق الثالث يربطها بتونس مروراً بالحجاز. أما الطريق الرابع فهو الذي يربطها مع مدن السودان المختلفة مروراً بملي[٥٩].

الهوامش

(١) السعدي ،عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران(ت١٠٦٣هـ / ١٩٥٣م)، تاريخ السودان(باريس١٩٦٤) ، ص ٢٠-٢١.

(٢) دريد عبد القادر: تاريخ الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء،(الموصل ١٩٨٥م)، ص٢٨٤.

(٣) أنظر: أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، القاهرة ، ١٣٢١هـ ، ص٧٠. محمود كعت التنبكتي، تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس (باريس ١٩١٤م) ص١٧٨ ، السعدي تاريخ السودان، ص٢٠-٢١. مجهول، تذكرة النسيان، ص٧٩.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، ص٤٨.

(٥) ابن بطوطة، ابو عبدالله اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار (باريس،د. ت) ، ص٤٣١٠٤٣٠.

(٦) نقلاً عن: زاهر، رياض، الممالك الإسلامية في غرب افريقية وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى (القاهرة، ١٩٦٨م)، ص١٥٩.

(٧) تاريخ الفتاش، ص١٧٨وما بعدها.

(٨) تاريخ السودان، ص٢٠.

(٩) ستودارد، لوثروب ، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض ، تعليق شكيب أرسلان (القاهرة ١٣٥٢هـ) ٤٥/٣.

(١٠) زاهر، رياض: الممالك الأسلامية في أفريقية، ص١٣٣، ٩٠.

(١١) أنظر: السعدي، تاريخ السودان، ص٢٢ وما بعدها، دائرة المعارف الإسلامية، ١٠- ٤٦.

(١٢) أنظر: السعدي، تاريخ السودان، ص٢٢- ٢٤. عبد الرحمن زكي،تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية (القاهرة ١٩٦١م)، ص١٢٥.

(١٣) المصدر نفسه، ص٦٤- ٦٥.

(١٤) المصدر نفسه ، ص٦٥.

(١٥) المصدر نفسه والصفحة.

(١٦) المصدر نفسه، ص٩٩.

(١٧) المصدر نفسه والصفحة.

(١٨) نقلاً عن: دريد عبدالقادر: تاريخ الإسلام في أفريقيا، ص٣١٧ومابعدها.

(٢٠) السعدي، تاريخ السودان، ص٩٩-١٠٠.

(٢١) المصدر نفسه ، ص١٠٦-١٠٧.

انظر كذلك: عبد الرحمن زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص١٤٥.

(٢٢) السعدي، تاريخ السودان، ص١١١.

(٢٣) عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص١٤٧.

(٢٤) السعدي: تاريخ السودان، ص١٢١.

(٢٥) مجهول (ت١٧٥١م)، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان (بارس ١٩٦٦م)، ص٤.

(٢٦) محمود كعت التنبكتي، ص١٥٧.

(٢٧) المصدر نفسه ،ص١٥٦- ١٥٨.

(٢٨) المصدر نفسه، ص١٧٤.

(٢٩) المصدر نفسه ، ص١٧٥.

(٣٠) عبد الرحمن زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص١٥٨ ومابعدها.

(٣١) ((الفولة أو الفيلي مفردها فول اسم أطلقه الشعب على نفسه)) دخلوا الإسلام في وقت مبكر وقام زعيمها عثمان الفودي بتوحيدهم وتأسيس مملكة في شمال نيجريا. أنظر: عبد الرحمن زكي: تاريخ الممالك الإسلامية السودانية، ص٣٦-٣٧.

(٣٢) أنظر: دائرة المعارف الإسلامية،جزء ١٠/ص٤٦٦ ومابعدها.

عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص٢٢٢ , ١٦٨.

(٣٣) عبد الرحمن زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص١٦٨.

(٣٤) المصدر نفسه ، ص١٠٩. زاهر رياض، الممالك الإسلامية ١٩،٢٣

(٣٥) زاهر رياض :الممالك الإسلامية، ص١١٩.

(٣٦) المصدر نفسه ، ص١١- ١٢.

(٣٧) عن الملح والذهب، أنظر: البكري، ابو عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد (ت٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب(باريس ١٨٥٧م) ، ص١٧١. ابن فضل الله

العمري،احمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) – مسائل الابصار في ممالك الامصار (الاسكندرية ١٩٥٨م)،ص٢١٤.

(٣٨) المصدر نفسه ، ص١٢.

(٣٩) الكولا ((حبوب تعتبر شعاراً للصداقة ولم يكن يتم مجلس دون وجود الكولا عن الكولا علاوة على استعمالاتها الطبيعية)) زاهر، رياض: الممالك الإسلامية، ص٣١٠.

(٤٠) زاهر رياض: الممالك الإسلامية، ص١١٩.

(٤١) تاريخ السودان، ص٢١.

(٤٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٤٣) تاريخ السودان، ص٢١.

(٤٤) زاهر رياض: الممالك الإسلامية، ص١١٩.

(٤٥) عبد الرحمن زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص١٠٩ وما بعدها.

زاهر رياض: الممالك الإسلامية، ص١١٩.

(٤٦) السعدي: تاريخ السودان، ص٧– ٨.

(٤٧)زاهر رياض: الممالك الإسلامية، ص٢٢٩،٢٤٤–٢٤٥.

(٤٨) المصدر نفسه ، ص٢٤٤.

(٤٩)عبد الرحمن زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص٢٢٣.

(٥٠) نقلاً عن: زاهر رياض: الممالك الإسلامية، ص١١٦.

(٥١) المصدر نفسه ، ص١٨٢- ١٨٣.

(٥٢) المصدر نفسه ، ص٢٥٢.

(٥٣) نقلاً عن: زاهر رياض: الممالك الإسلامية، ص١٦٤.

(٥٤) المصدر نفسه ، ص٢٠٧.

(٥٥) المصدر نفسه ، ص١٦٣.

(٥٦) المصدر نفسه ، ص١٦٣.

(٥٧) محمود كعت،ص١٨٠.

(٥٨) زاهر رياض : الممالك الإسلامية ، ص١٥١.

(٥٩) أنظر: عبد الرحمن زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية، ص٢٢٣.

زاهر رياض: الممالك الإسلامية، ص١٣٥.